الفصل السادس

بلاد المغرب

تمهيد — الحوض الغربى من البحر المتوسط

البحر الأبيض المتوسط يحد أوروبا من ناحية الجنوب وأفريقية من ناحية الشمال وبعض آسيا من ناحية الغرب . وليس معنى هذا أنه يعزل كل قارة عن الأخريين ، بل إنه على العكس جعل الصلة بين مصر والأناضول عن طريق البحر أقوى من الصلة بين مصر والشام عن طريق البر ؛ وعلى هذا النمط ربط الشعوب المحيطة به فأثر كل منها فى حضارة الآخر بشتى الوسائل حتى ليمكن أن نقول بأن لهذا البحر حضارة مشتركة ، ذات صبغة خاصة تعاونت شعوبه فى تشكيلها على الرغم من اختلاف العادات والأديان .

ودليل ذلك ظاهر فى التاريخ ، فإن أوروبا بدأت باقتراض حضارتها من من مصر وآسيا ، ثم انتشرت حضارة الاغريق فى آسيا ومصر أيام دولة الاسكندر والدول التى قامت على أنقاضها مثل دولة البطالمة فى مصر ، فلما أضاءت حضارة الإسلام كان هذا البحر واسطة لنقلها إلى أوربا . وها نحن نراه يربطنا بمدنية أوربا الحديثة بروابط تزيد على مر الأيام توثقا . ومن أجل ذلك يسعى كثير من ساسة العصر إلى إنشاء حلف يضم بلاد هذا البحر .

ويقسم البحر الأبيض المتوسط حوضين يهمنا منهما الحوض الغربي ، وحدوده إجمالا جبال الألب وجبال « بناين » وجبال صقلية التي تغطس تحت الماء ثم تظهر في شبه جزيرة تونس ، ومن ثم جبال أطلس التي تمتد سلاسل متوازية تنتهي بالتقوس شمالا في بلاد الريف . وكانت هذه الجبال قبل أن ينشأ مضيق جبل طارق تتصل اتصالا مباشراً بجبال سييرا نڤادا في أسبانيا . وهذه بدورها تتصل بجبال جزر البليار والسلسلة الضيقة التي يخترقها نهر « إبرو » ، ثم تنخفض في خليج ليون إلى أن تظهر إلى الشرق من نهر الرون باسم مرتفعات بروڤنس التي تتصل بجبال الألب .

ومن هذا يتضح أن أوربا وأفريقية كانتا متصلتين . وما يزال الباب الذي يفصل بينهما بمقدار ٢٩ كيلو متراً — وهو مضيق جبل طارق — ذا عتبة هائلة ترتفع عن قاع المحيط الأطلسي بنحو ٣٥٠ متراً ، وهذه العتبة تمنع الماء البارد الذي بقاع المحيط من دخول البحر المتوسط ، فلا يدخل إليه إلا الماء السطحي وهو دفيء يحدث تأثيراً حسناً في مناخ هذا البحر في فصل الشتاء . ولهذا الحوض الغربي باب آخر هو مضيق صقلية ويبلغ اتساعه ١٣١ كيلو متراً . ومن خصائص هذين البابين أن الدولة التي تسيطر على ضفة أحدهما لا بد أن تحاول الاستيلاء على الضفة الأخرى .

فأما مضيق جبل طارق فلعل الفينيقيين أول من فطن لأهميته ، وذلك في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، فسارعوا إلى التحكم في ضفتيه ، وضمنوا بذلك استيراد القصدير من بريطانيا دون أن يهدد أحد خطوط مواصلاتهم .

واستولى الرومان على أسبانيا نحو سنة ٢٠٤ ق . م . ثم أخذوا جزءاً من

بلاد المغرب فى عهد أغسطس (سنة ٣٠ ق . م إلى سنة ١٤ م) و بلغ من شدة ارتباط الضفتين أن كانت ممتلكاتهم فى أسبانيا وفى المغرب بمثابة مستعمرة واحدة .

ولما ملك القوط أسبانيا امتد نفوذهم إلى سبته . ثم جاء المسلمون فملكوا الضفتين سنة ٧١١ م . وظهر الإرتباط بينهما من جديد ، فكانت أسبانيا تابعة فى الإدارة لبلاد المغرب ، بمعنى أن الضفتين كانتا تعدان ولاية واحدة . و بقيت الضفتان فى أيدى المسلمين نحو ٨٠٠ سنة .

وها نحن نرى اهتمام أسبانيا بتوسيع نفوذها فى الريف . وليس من شك فى أنها ترنو إلى استعادة جبل طارق من يد بريطانيا ، بينما تبذل هذه جهد المستميت للإحتفاظ بهذه الصخرة ضماناً لمصالحها فى الشرق .

وأما مضيق صقلية فقد ملكته قرطاجنة بالسيطرة على جزء من جزيرة صقلية . فلما كانت الحرب البونية الأولى نحو سنة ٢٦٠ ق . م . انتزعت روما صقلية من القرطاجنيين ، وجعلت من هذه الجزيرة قاعدة حربية للقضاء على قرطاجنة وتم لها ذلك سنة ١٤٦ ق . م .

ولم يمض ربع قرن على ذلك حتى أنشأت روما مستعمرة جديدة على أنقاض قرطاجنة ، نزح إليها كثير من الرومان وعمروها و بقيت مرتكزاً لقوتهم تدافع المسلمين زمناً طويلا حتى اضطر حسان بن النعمان الغسانى إلى تخريبها سنة ٨٣ هجرية — ٧٠٢ م . وأنشأ إلى جانبها مدينة تونس .

ولما استقر ملك المسلمين فى أفريقية كان من أول أهدافهم امتلاك

صقلية ، وما برحوا يغزونها حتي امتلكوها على يد الأغالبة فى نحو منتصف القرن الثالث الهجرى .

فلما ملك النورمانديون صقلية بذلوا جهداً كبيراً للاستيلاء على الضفة الإفريقية ، ونجحوا فى إمتلاك المهدية مدة ، ولما صارت صقلية إلى « شارلكان » « شارل الخامس » امبراطور ألمانيا وملك أسبانيا استولى على تونس سنة ١٥٣٥ م .

وما كادت ايطاليا تجمع شملها ، وتنعم باستقلالها حتى تطلعت الى تونس لولا أن سبقتها فرنسا عام ١٨٧٥ م ، على أن هذا لم يمنع تسرب العنصر الإيطالى الى تونس ، فبينما كان الفرنسيون فيها سنة ١٩٣٥ ، ٣٥ ألفاً ، إذا بالإيطاليين مائة ألف أكثرهم من أهل صقلية يعيشون جماعات متعاونة تحتفظ بلغتها وعاداتها ، ويكثر نسلها بشكل مخيف حتى أصبحت دولة فى جوف دولة . ومطالب إيطاليا فى تونس معروفة من قبل أن تقوم الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ . ولعل من أسباب دخولها فى جانب ألمانيا فى تلك الحرب رغبتها فى تملك تونس. ولو انتصر الجانب الذى انضمت إليه لكان من المرجح كثيراً استيلاؤها على تلك البلاد وطرد فرنسا منها .

بلاد المغرب

ومن أهم أجزاء الحوض الغربى للبحر المتوسط شمال أفريقية الغربى ، وتحده الصحراء الكبرى من الشرق والجنوب ، ويحف به الماء من الشمال والغرب ، والساحل قليل المرافىء أكثر ما فيه فجوات هلالية الشكل

معرضة للرياح الشمالية التى تهب فى الصيف ، وهو أكثر فصول السنة صلاحية للملاحة . ولا توجد إلا فجوات قليلة على شكل آكياس تؤدى جوانبها شيئاً من الوقاية للسفن . وأهم هذه المرافىء تونس و بنزرت و بجاية ووهران .

والنتيجة أن شمال أفريقية الغربى يصعب التوغل فيه من ناحية البحر المتوسط . فلما أراد الغزاة الأقدمون التوغل فيه لم يجدوا من الساحل صدراً رحباً ، ثم عاقتهم الغابات التى كانت تكثر فيه . لأن أشجارها وعشبها كانت تضيع معالم الدروب ، ولأن الأقدمين كانوا يرهبون ظلام الغابات ، حيث يتمكن السكان من التربص للمارة عامة ، وللغزاة خاصة .

وعاونت الصحراء كذلك فى وقاية هذه البلاد من الغزو فى الزمن القديم و بخاصة لأن الإبل لم تكن معروفة بها قبل ميلاد المسيح ، فلم يكن قطع الصحراء على ظهور الخيل بالأمر الهين فبقيت الصحراء تفصل بين السودان و بلاد المغرب حتى انبرى لها العرب ، وقد نبتوا فى صحراء مثلها وتثقفوا بثقافتها فذللوها لأول مرة فى التاريخ ، وعبدوها للأغراض الحربية والإقتصادية ، بعد أن كان أهل السودان منعزلين عن بلاد المغرب لا يعرفون عنها شيئاً .

وفى داخل بلاد المغرب تمتد جبال أطلس من مضيق صقلية إلى المحيط الأطلسى ، وتنقسم من حيث التضاريس ثلاثة أقسام :

أولها الأطلس البحرية — وتعرف بالتل — وهى مجموعة سلاسل تحاذى الساحل ومنها شعبة الأطلس الصغرى المعروفة بجبال الريف . وهذه السلسلة

ترتفع من الساحل ارتفاعاً شاهقاً ولا تترك بينها و بين البحر المتوسط إلا سهلا ساحلياً ضيقا .

وثانيها الأطلس الصحراوية وتمتد فى بلاد الجزائر الحالية وتنحدر انحداراً شديداً نحو الصحراء ، وتبعث بمجارى مائية قصيرة تغذى عدداً من الواحات . و بين التل والأطلس الصحراوية تقع هضبة الشطوط أو البحيرات الملحة وتعلو سطح البحر بنحو ٩٠٠ متر . وهى قليلة الأمطار ، ولهذا كان أكثرها مراعى وانبنى على ذلك ارتباط أهلها ببدو الصحراء أكثر من ارتباطهم بأهل السهل الساحلى حيث الحرث والمدن .

وثالثها الأطلس الكبرى وتمتد فى المغرب الأقصى .

ومنطقة الأطلس بأجمعها أكثر شبها بأوربا منها بأفريقية ، وفيها نشأت المستعمرات القديمة ، حيث فتحت الطبيعة أبواباً ، ومهدت وديانا تسرب المستعمرون بواسطتها من الساحل إلى داخل البلاد . وأهم هذه الوديان مجردة وهو نهر تونس ، وشليف وسبو ، وأم الربيع وتنسفت والسوس . أما حيث لا توجد وديان فتنحصر التجارة والمستعمرات قرب الساحل . وأكبر مساحة زراعية توجد فى تونس الحالية حيث قامت دولة قرطاجنة ، إذ كان المطر يكفى لإنبات القمح وغيره من الحبوب إلى جانب الزيتون والفاكهة .

وعند خليج قابس تندمج الجبال فى هضبة أفريقية ، و يظهر سهل ساحلى عرضه لا يزيد على ٤٨ كيلو متراً ، كان وما يزال طريق الهجرة والحرب والتجارة والحج بين بلاد المغرب ومصر . و بواسطة هذا النطاق امتد حكم مصر أيام الفراعنة إلى خليج سدره ، وفيه سار الفرس فى القرن السادس قبل الميلاد ، وسلكه العرب من مصر حين أرادوا فتح بلاد المغرب . أما ما يلى

هذا السهل الساحلى جنوباً فصحراء رملية لا تسهل فيها الحركة ولا سيما على الجماعات الكبيرة .

و بلاد المغرب تتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط ، ومطره شتوى يوافق نمو الحبوب والغلال . و بسبب الارتفاع نجده معتدل الحرارة ، و يوجد الثلج على قمم بعض جباله طوال العام .

حال البربر قبيل الفتح الإسلامى

استقر البربر فى شمالى أفريقية من عهد ما قبل التاريخ . وتسعة أعشارهم من الجنس الحامى نزحوا من الشرق عن طريق السهل الساحلى المجاور للبحر المتوسط ، و بقيتهم من الشقر يغلب أنهم جاءوا من شمال أوروبا عن طريق جبل طارق .

واختلط بالسكان الأصليين أناس من الفاتحين من فينيقيين و إغريق ورومان ووندال وقوط . ولكن تأثير هذه الأمم الغالبة كان ضعيفاً فى الجنس واللغة والتقاليد ، فقد بقى السواد الأعظم بربرياً واقتصر الأثر الأجنبى على السواحل ، كما بقى نظام القبائل سائداً فى داخل البلاد تطبق كل قبيلة عرفها وتقاليدها شأن قبائل العرب ، وكانوا يشبهون العرب كذلك فى حروبهم وجلدهم وتخشنهم ، وفى عبادة الأوثان والنجوم ، وقد اكتفى الرومان منهم بالجزية وتركوهم تحت حكم شيوخهم ، على أن نار الرغبة فى الاستقلال لم يخمد أوارها .

ولما ضعف سلطان الروم برزت شخصية البربر ؛ فلما اعتنق بعضهم المسيحية على مذهب يخالف مذهب الحكومة تحولت الخلافات الدينية حرباً بين الأجناس كما كانت الحال بمصر بين الروم الملكانيين والمصريين اليعاقبة .

وكانت الحكومة فى المغرب تعاقب مخالفيها أشد العقاب ، وبلغ من ذلك أن أحد الأباطرة شلح ٣٠٠ أسقف وألوفاً من صغار القسوس ونفاهم ، وحرم على العامة إقامة شعائر الدين كما حرم المخالفين منهم حقوقهم المدنية . فكان هذا الاضطهاد الدينى مذكياً لنار العداء الجنسى فكثرت الثورات على الروم وتحرر كثير من البربر من نير الحكومة على حد قول ابن خلدون : « وصار لهم وراء الأمصار المرهوبة ما شاء الله من قوة وعدة وعدد ، وملوك ورؤساء لا ينالهم الروم والفرنج بمسخطة ولا إساءة » .

على مثل هذه الحال كان البربر حين دخل العرب بلادهم فواجه العرب قبائل لا تقل عنهم بداوة و بأساً ، وتمتاز بلادها عن جزيرة العرب بجبالها الشامخة ومسالكها الوعرة وكثرة وديانها الخصيبة ، مما يهيىء للمدافعين عنها فرصاً كثيرة للايقاع بالمغير ، حين تهب كل قبيلة للذود عن ذمارها . وكان جمهور البربر قبائل بدوية يعيش أكثرها على الرعى فى هضبة الشطوط وفى الأطلس الصحراوية والكبرى ؛ ومن باب أولى فى الوديان الكثيرة التى تنحدر من هذه الجبال إلى الصحراء والتى تكثر فيها الواحات .

و بسبب ضيق السهل الساحلى الخصيب وصعوبة الاتصال بين أجزاء البلاد لم تقم فيها دولة كبيرة تجمع شتاتها فترة طويلة من الزمن كما حدث فى

مصر ، وإنما قامت فيها فى أكثر حقب التاريخ ، دويلات صغيرة متنافسة شأنها فى ذلك شأن بلاد اليونان حيث قامت المدن الحكومية المتفرقة قبل أن تخضع تلك البلاد للمقدونيين ثم للرومان .

وانبنى على هذا التشتت السياسى الذى أملته طبيعة البلاد أن كان السهل الساحلى الخصيب مطمح أنظار المستعمرين فى مختلف العصور . وكان بعضهم يتوغل إلى الداخل عن طريق وديان الأنهار . ولكن هذه الطبيعة بذاتها حين أطمعت المستعمرين فى البلاد طوعت لأهلها وسائل المقاومة متى استطاعوا . فإذا عجزوا لجأوا الى قنن الجبال وتحصنوا بالصحراء ، يتربصون بالعدو ، حتى إذا لاحت الفرصة خرجوا من كهوف الجبال ومخابئها العديدة مما يتمثل فى جبل أوراس ، وهرعوا كذلك من جوف الصحراء وانقضوا على المدن وأهلكوا الحرث والنسل يريدون مطاردة الأجنبى .

ويهمنا من ضروب مقاومة البربر ماحدث أيام الفتح الإسلامى، وملخصه أن العرب حين فتحوا مصر تحتم عليهم فتح برقة إذ كانت ملحقة بمصر بوصفها الدوقية الخامسة . فلما بلغ عمرو بن العاص الى أطرابلس كتب إلى عمر : « انا قد بلغنا أطرابلس و بينها و بين أفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل » فرد عليه عمر : « ما هى بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها » ولعله أراد أن الجيوش التى تغزوها لا مناص لها من التفرق فى أقسامها الطبيعية وأنها تغدر بالغازين فى مكامنها الكثيرة حين يخيل إليهم أنهم امتلكوها ، وان هؤلاء الغازين يغدرون بها انتقاماً لأنفسهم .

ومصداق ذلك أن العرب فتحوا العراق والجزيرة وفارس والشام ومصر في عشر سنين ، بينما استغرق إخضاع أفريقية مايقرب من سبعين سنة . وأول من حاول ذلك عبد الله بن سعد والى مصر فخار بها مرتين على غير جدوى . ثم حاول ذلك معاوية بن حديج فى عصر أمير المؤمنين معاوية فضاعت جهوده أدراج الرياح .

وكان عقبة بن نافع الفهرى قد قضى ربع قرن بالمغرب فرأى فى غزوة قام بها سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠ م . أنه لا مقام للعرب بافريقية ما دام قرب صقلية يطوع لأسطول الروم استردادها من العرب . كما شاهد ذلك بنفسه أكثر من مرة . وأعمل عقبة الفكر فبان له أن من أسباب تراجع العرب عن أفريقية طول خط مواصلاتهم بينها و بين أقرب مرتكز لهم وهو الفسطاط . فاستقر رأيه على أن خير وسيلة للاستقرار بالمغرب إنما هى الاحتفاظ فيها بجيش دائم ، وأن ذلك يستدعى إنشاء مدينة جديدة تكون مقر عسكر المسلمين وموطن أهليهم وتحفظ فيها أموالهم .

فاختار لذلك موقعاً له ميزات عديدة من حيث الحرب والاقتصاد والمواصلات وأنشأ فيه القيروان فى رقعة تكفى مزارعها لتموين الحامية ومن معها ، بعيدة عن الساحل بحيث لا ينالها الأسطول الرومى ، وفى مواجهة جبل أوراس الذى كثيراً ما قاوم سكانه الفاتحين من قبل ، وعلى محجة القوافل بحيث يستطيع الجيش العربى اذا اضطر أن يتقهقر الى فئته ببرقة والفسطاط .

وقد أعجب كثير من الكتاب الأوربيين بحسن بصر عقبة بالأستراتيجية

فقال أحد الفرنسيين : « لا ريب أنه فى غضون عشر السنين الأولى من الفتح العربى كانت أهم المعارك تدور حول أوراس ، كما كانت الحال فى القرن السابق على الفتح أيام حكم الروم فى افريقية » .

ومن هذا المرتكز الجديد اخترق عقبة بلاد المغرب (نحو سنة ٦٢ هـ سنة ٦٨٢ م) إلى ساحل الأطلنطى ودخل فى الاسلام أناس من البربر منهم كسيله ابن الأعز الأوربى ، ولكنه على الرغم من اسلامه ساءه أن يستصغر العرب قومه فانتهز وجود عقبة فى قلة من الجند وأثار عليه البربر وجماعة من الروم وانقض عليه فى تهوذه على نهر الزاب فاستشهد عقبة وجميع رجاله . وما يزال ضريح عقبة إلى اليوم مزاراً لألوف مؤلفة من جميع نواحى المغرب .

وحكم كسيلة أفريقية خمس سنين ، ومكن له فيها خلاف بنى أمية وابن الزبير . فلما قتل عبد الله ، أرسل عبد الملك فى سنة ٧٦ هـ سنة ٦٩٥ م جيشاً لم تر أفريقية أكثر منه وجعل قيادته إلى حسان بن النعمان الغسانى فرأى هذا أن اطمئنان العرب هنالك يستدعى القضاء على الحامية الرومية فى قرطاجنة وتخريب ذلك الثغر . ونفذ عزمه بمساعدة أسطول اسلامى .

وبعد تخريب قرطاجنة رأى حسان أن ينشىء ثغراً على البحر المتوسط يدفع الروم إذا حاولوا تعمير قرطاجنة ، واختار لذلك مكاناً إلى الجنوب من قرطاجنة به بحيرة ضحلة تبعد عن الساحل بستة كيلو مترات ونصف كيلو متر ، وحفر حسان فى البرزخ الذى يفصل البحيرة عن الساحل قناة عميقة تسير فيها

السفن . ثم حفر من البحيرة قناة قليلة العمق لا تصل فيها الى تونس إلا الزوارق الصغيرة . و بذلك نشأت تونس ثغراً بعيداً عن الساحل بحيث يطمئن العرب إلى سكناه غير حاسبين لإغارات الروم حساباً ، وتحميه البحيرة من أمواج البحر و يمكن الإغارة منه على صقلية وغيرها من بلاد الروم .

و إلى جانب هذا ، طلب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك الإذن بإنشاء « دار صناعة » لبناء أسطول عربى ، فبعث إليه عبد الملك بألف من صناع مصر الحاذقين فى صناعة السفن أنشأوا دار صناعة فى تونس . واستقر هؤلاء المصريون هنالك بأهلهم وولدهم وأشاعوا فى الثغر الجديد روحاً صناعياً بحرياً جعل تونس المنفذ البحرى إلى صقلية وسردانية و إيطاليا .

غير أن البربر رغم اسلام كثير منهم ، ورغم قضاء حسان على كسيلة الأوربى ، ظهر من بينهم زعيمة يهودية عرفت بالكاهنة إنقادت لها قبيلة جراوة المقيمة حول جبل أوراس وهو من أمنع جبال المغرب إن لم يكن أمنعها جميعاً . وتغلبت الكاهنة على حسان وطاردته الى برقة .

ولما كانت الكاهنة وقومها بدوا لا يقيمون المدن وزناً قالت لهم : « إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من ذهب وفضة ؛ ونحن إنما نريد المزارع والمراعى . فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب منها » . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا ، فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وجاست بالفساد خلاله . فشق ذلك على البربر ، واستأمنوا إلى حسان فأمنهم » ومعنى

ذلك أن تفرق أهل المغرب قبائل متحاسدة ، حمل فريقا منهم — وهم أهل الحضر على الأكثر — على مناوأة الكاهنة ، فاستطاع حسان أن يقضى عليها سنة ٨١ هـ قرب جبل أوراس . لكن حسانا مع ذلك كان قد تعلم من الحوادث السابقة أنه لا سبيل إلى إخضاع البربر بالقوة وحدها ، فعمد إلى استرضائهم عامة بأن جعل منهم ١٢٠٠٠ يلازمونه فى القتال ، وسوى بينهم و بين العرب فى الحقوق والواجبات . واستمال أعوان الكاهنة بنوع خاص بأن عقد لأكبر أبنائها على جراوة وجبل أوراس .

و بعد هذا كله ، خرج كثير من البربر على العرب فاضطر موسى بن نصير فى نحو سنة ٨٩ هـ أن يقاتلهم فى تلمسان . فلما انتصر عليهم استأنف استرضاءهم ، فولى طارق بن زياد على طنجة ، وتوسع فى إدماج البربر فى جيشه وخصص جزءاً كبيراً من المال الذى كان يبعث به إليه أمير المؤمنين فكان يشترى بذلك الجزء من يتوسم فيهم الهداية من أسرى البربر . فإذا أظهروا استعداداً ومواهب أعتقهم فى الحال وعينهم فى مراتب هامة فى الجيش . ومن الوسائل التى لجأ إليها موسى لكسب رضاء البربر إختياره جماعة من ثقات القراء والفقهاء لنشر الإسلام بينهم .

ومن ذلك الوقت صارت بلاد المغرب الجناح الأيسر لقوات الإسلام . وفى وصف هذا الانقلاب يقول مؤرخ فرنسى : « هذه نتيجة تستحق الإعجاب إذ أنه قلما يحدثنا التاريخ عن استعمار على وجه الكرة الأرضية وفق إلى مثل هذا النجاح » . و يقول مؤرخ آخر من غير المسلمين : « الحق أن تأثير

الفاتحين الأقدمين كان مقصوراً على النطاق الضيق الخصب المجاور للساحل ، وكان من هذا التأثير أن سكان هـذا النطاق وحدهم اعتنقوا المسيحية أيام الرومان والبيزنطيين ، أما فيما عدا ذلك فإن السكان لم يتأثروا تأثراً عميقاً بالحضارة الرومانية — مثلا — لأن الرومان والبيزنطيين كانوا يعيشون غالباً فى المدن الساحلية .

أما صبغ جموع البربر بصبغة عربية وتحويلهم إلى عقيدة الإسـلام ، وتجنيد جند منهم يتسابقون فى مضمار الفتوح ؛ فتلك معجزة الإسلام التى مكنت له من إنشاء وطن جديد استعان به فى ارتقاء سلم الزعامة العالمية » .

وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، فأرسل إلى المغرب عالمـاً زاهداً هو اسماعيل بن عبيد الله المخزومى والياً على الحرب والخراج والصدقات ، و بعث معه بعشرة من الفقهاء على غراره فتضافروا و إياه على نشر الاسلام فى تلك البلاد فاتسعت دائرته اتساعا عظيما .

ورسخت قدم الإسلام فى المغرب نهائيا بقيام دول مغربية إسلامية ، تولت الحـكم فى نواحى البلاد المختلفة . وعملت على نشر الدين وتطهيره مما علق به من الخرافات وآثار الجهل . و بذلك امتزج الدين والقومية امتزاجا تاما بحيث لم يعد يمـكن فصل أحدهما عن الآخر . ومن أهم تلك الدول المغربية المرابطون والموحدون .

و إنما تعددت الدول فى بلاد المغرب وكثرت فيها الثورات ، بحـكم

جغرافيتها و بحكم إباء أهلها الاستكانة إلى السيطرة الأجنبية ، كما شاهدنا ذلك فى مقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى لفرنسا ، ومقاومة أهل ليبيا للغزو الإيطالى ، ومقاومة الأمير عبد الكريم الخطابى للاستعمار الأسبانى .

والمنظور — بناء على ما تقدم — أن تخف وطأة الاستعمار الأجنبى فى تلك البلاد الشقيقة ؛ وأن ينتهى أمرها بقيام دول قومية فى أجزائها المختلفة . أما اجتماعها من حدود ليبيا إلى المحيط الأطلسى فى دولة موحدة ، ولمدة طويلة ، فيكون من قبيل الإستثناء ، لا من أثر البيئة الجغرافية .